ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون



الأستاذ: عبد الإله الغياثي بن زياد

بسم الله الرحمن الرحيم

في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾

(المطفّفين: 32)

تظهر معانٍ نفسية عميقة تكشف طريقة تفكير الكفار وآلياتهم الدفاعية، وفيها دروس تربوية مهمّة.
من أبرز هذه المعاني:

1. آلية الإسقاط النفسي (Psychological Projection)

الكفار هم الضالون في الحقيقة، لكنهم أسقطوا ضلالهم على المؤمنين.

وهذه آلية نفسية معروفة:

الشخص يتهرّب من مواجهة عيبه فينسبه إلى غيره.

2. الحاجة إلى تبرير الذات أمام التزام المؤمنين

عندما يرى الكافر أهل الإيمان، يظهر لديه شعور بالنقص لأن حياة المؤمن مستقيمة ومنضبطة.

ولكي يتخلّص من الإحراج الداخلي يقول:

«هؤلاء ضالون»

ليُهدّئ ضميره ويبرّر طريقه.

3. السخرية كدرع نفسي

قولهم ليس وصفًا موضوعيًا، بل هو استهزاء ناتج من:

- كبرياء
- ومقاومة للحق الذي يشعرون بضغطه الداخلي

السخرية هنا أداة للهروب من الحقيقة.

4. ضغط الجماعة والتفكير الجمعي

هذه الكلمة تقال أمام الآخرين، ما يعني أن الكفار:

- يحبون أن يظهروا بمظهر العارفين
- ويتجنبون الاعتراف بالحقيقة أمام المجموعة

فهم يردّدون ما يعزز الهوية الجماعية للكفر.

5. قلب المفاهيم (Cognitive Inversion)

الحق عندهم باطل، والباطل حق.

وهذا يحدث عندما يعيش الإنسان:

- تحت سيطرة الهوى
- أو قيم المجتمع الجاهلي

الذي يفرض تعريفاته للخير والشر.

6. ضيق النفس أمام أهل الطاعة

المؤمنون يذكّرونهم بالآخرة وبـ الله، وهذا يسبب لدى الكافر قلقًا وجوديًا، فيلجأ إلى الاتهام بدل التفكير.

7. حرب نفسية لإضعاف ثبات المؤمنين

الكفار يحاولون أن يصنعوا ضغوطًا نفسية على المؤمنين بوصمهم بالضلال.

والمؤمن يسمع هذا كثيرًا عبر التاريخ:

“رجعي، متخلّف، ضال...”

وكلها أساليب لإضعاف العزيمة.

خــلاصــة

الآية تكشف:

- طبيعة الإنسان حين يرفض الحق
- وكيف يعمل عقله ونفسه ليحمي صورته الداخلية
- وأن المؤمن سيُتَّهَم دائمًا لأنه يخالف أهواء الناس

فوائد تربوية من هذه الآية، مع ربطها بواقع المسلمين اليوم:

في هذا الفصل فوائد تربوية مستخلصة من موقف الكفار في قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾:

فوائد تربوية

1. ثبات المؤمن أمام الاتهامات

المؤمن يجب أن يعلم أن اتهام الناس له لا يغيّر من حقيقة دينه،

وأن طريق الإيمان عبر التاريخ كان مليئًا بالاتهام والسخرية.

2. عدم الانخداع بكثرة الباطل وضجيجه

الكفار يرفعون أصواتهم ويتهمون غيرهم بثقة زائفة،

لكن هذا لا يعني أنهم على حق.

الكثرة ليست معيارًا، بل الحجة والبرهان.

3. ضرورة بناء هوية إيمانية قوية

المؤمن الذي يعرف قيمته عند الله لا تهزه أحكام الناس،

ولا تغيّره نظرة المجتمع أو تسمياته.

4. فهم أن السخرية ليست دليل قوة بل ضعف داخلي

حين يسخر أهل الباطل من أهل الحق،

فهذا في الحقيقة يعكس:

- خوفًا داخليًا
- وقلقًا من ثبات المؤمن
- ورفضًا لمواجهة الحقيقة

وهذا يعلمك ألا تعطي كلامهم أكبر من حجمه.

5. التربية على الصبر الطويل

اتهام المؤمنين بالضلال يورث:

- الصبر
- الثبات
- والتحمل

وهي صفات ضرورية لحاملي الرسالة.

6. الحكمة في الرد

لم يردّ المؤمنون على الكفار في الآية؛ لأن الرد في مواضع الاستهزاء قد يزيد المتكبر عنادًا.

وهذا يعلّمنا:

> ليس كل اتهام يستحق جوابًا.

7. إدراك أن الحق غريب في مجتمعات الجاهلية

عندما تضعف القيم في المجتمع، يصبح المتمسك بالحق غريبًا،

ويُعدّ عندهم "ضالًا" لأنه خالف أهواءهم.

هذا يربي المؤمن على تقبّل غربة الدين.

8. التأكيد على أن الميزان الحقيقي هو ميزان الله

الناس قد يمدحون أهل الباطل ويذمّون أهل الحق،

لكن الميزان عند الله وحده،

وما يهم هو: هل أنت مستقيم عند الله، لا عند الناس.

9. أهمية تجنب الحكم على الناس بغير علم

الآية تربي الإنسان ألا يطلق أحكامًا على الآخرين بلا دليل،

فالظن وسوء النية سلوك الكفار، لا أهل الإيمان.

10. اليقين بأن العاقبة للمتقين

بعد هذه الآيات جاء سياق يُبيّن جزاء المؤمنين ونعيمهم،

مما يعلّمك:

- أن الدعاوى الباطلة تزول
- وأن كرامة المؤمن تظهر يوم القيامة

وتنقلب الموازين.